الباب الأوّل في التفكير العلمي

التمثّل

✓ لم يكن للعرب في الجاهليّة علم يذكر، وبعد ظهور الإسلام وانتشاره، وبعد أن استقرّ الوضع للعرب في البلاد التي فتحوها، وانتظمت دولتهم الواسعة انكبّوا على تحصيل العلوم، يدفعهم إلى ذلك دينهم الحنيف الذي جعَل طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة، وأمر بطلب العلم من المهد إلى اللّحد.

✓ وجد العرب عند الهنود والفرس والإغريق ضالتهم فوقفوا منها موقف الوارث وكانت العلوم متفرّقة مبعثرة فجمعوا شتاتها ورتّبوا أصولها ونسقوا بينها وحفظوها من الضّياع.

✓ لعلّ أهمّ عامل ساهم في نقل علوم اليونان والهند وفارس وغيرها من الأمم إلى العربيّة هو تشجيع الخلفاء على التّرجمة، فالمأمون مثلا بنى للتّرجمة دارا خاصّة سمّاها دار الحكمة، كما كان يعطي لحنين بن إسحاق شيخ المترجمين زنة ما يترجمه ذهبا.

وقد تميّز العلماء العرب باعتماد مناهج علمية عديدة وطرق بحث متنوّعة منها:

النقد والغربلة

وقد أمكن هذا عبر إرساء مناهج في البحث تكفل تمحيصها والتّدقيق فيها، والبحث عن جزئيّاتها، من ذلك:

✓التّدقيق في تحديد المفاهيم، والتثبّت في وضع المصطلحات، من ذلك تعريف ابن خلدون لعلم الهندسة "هذا العلم هو النّظر في المقادير إمّا المتّصلة كالخطّ والسّطح والجسم، وإمّا المنفصلة كالأعداد" ومن ذلك تعريف الجاحظ للإنسان بصفته الذّاتيّة، يقول: "إنّه حيوان فصيح، وإنّه شيء عاقل، يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة ويستدلّ عليها". وقريب من ذلك تصنيف ابن بصّال للمياه وتحديد ضروبها بقوله: "اعلم أنّ المياه التي تغذو النّبات ويصلح بها، أربعة أصناف، وهي: ماء المطر وماء الأنهار وماء العيون وماء الآبار".

✓التّبويب والتّرتيب: لقد جمع العلماء المسلمون المادة العلمية وبوّبوها ونظّموها إمّا حسب الموضوع أو حسب الحروف الأبجدية على طريقة المعاجم، فابن البيطار استوعب ما جاء في "الخمس مقالات من كتاب "ديسقوريدوس" وجميع ما أورده "جالينوس" لكنّه أعاد تبويب المادّة وترتيبها "على حروف المعجم مقفّى ليسهل على الطّالب ما طلب من غير مشقّة ولا عناء ولا تعب".

❀ طرق البحث العلمي:

✓ كالشّك طريقا إلى اليقين، يقول الجاحظ" "وبعد، فاعرف مواضع الشّك وحالاتها الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلّم الشّك في المشكوك فيه تعلّما، فلو لم يكن في ذلك إلاّ تعرّف التّوقّف ثمّ التّثبّت، لقد كان ذلك ممّا يُحتاج إليه".

Tunisie DEVOIR.TN

✓الملاحظة والاستقراء: من أهمّ ما تميّز به العلماء المسلمون دقّة الملاحظة، فهم لم يقفوا عند المشاهدة، بل كثيرا ما عملوا على النّفاذ من الظّاهر إلى البعيد العميق ومن الإبصار إلى النّظر بالبصيرة، بحثا عن الأسباب والعلل، رابطين بين الأسباب والمسبّبات للوصول إلى حقيقة عامّة أو قانون ثابت، يقول ابن البيطار: "فما صحّ عندي بالمشاهدة وثبت لديّ بالخبرة لا بالخبر ادّخرته كنزا سريّا وما كان مخالفا للقوى الكيفيّة والمشاهدة الحسيّة والمنفعة والماهية للصّواب والتّحقيق وأنّ ناقله أو قائله عدلا فيه عن سواء الطّريق نبذته... وهجرته". وقريب منه الاستقراء وهو النّظر في الوقائع الجزئيّة لاستخراج حكم كلّي عند البحث في أمر من الأمور، أو هو سير الفكر من الخاصّ الفرديّ إلى العام الكلّي. يقول ابن الهيثم: "نبتدئ في البحث باستقراء الموجودات وتصفّح أحوال المبصرات، ونميّز خواصّ الجزئيّات ونلتقط بالبصر ما يخصّ البصر في حال الإبصار ما هو مطّرد لا يتغيّر وظاهر لا يشتبه".

✓على ضوء هذا التّعريف يمكن التّأكيد على أنّ تفكير العديد من علماء العرب والمسلمين كان استقرائيّا بشكل إجماليّ، فإذا عرضت لهم مسألة من المسائل راحوا يتأمّلونها ويلاحظون ما يتّصل بها وما يصدر عنها وما يحيط بها، ويجمعون الملاحظات عن طريق التّجربة والسّماع والعيان، ثمّ يستنبطون أحكامهم.

✓ التّجربة: كفر الإغريق بالمادّة وآمنوا بالعقل، أمّا العرب فقد آمنوا بالمادّة دون أن يكفروا بالعقل، بل لم يزدهم الإيمان بالمادة إلاّ إيمانا بالعقل. لقد جمعوا بينهما جمعا غير مسبوق، ولعلّ ذلك ما كان سبب نهضة علوم المادّة كالطّب والفلك والعلم الطّبيعي والكيمياء، وهي من العلوم التّجريبيّة، لذلك كانت التّجربة عند العلماء العرب أفضل من ألف كتاب، فقد أخذوا بمعيار التّجربة والمنطق، فما وقع في معيار التّجربة أخضعوه للمنطق. ومن أعلام المنهج التّجريبي الكندي الذي أجرى عديد التّجارب لإثبات نظريّة أو رغبة في أن يستوثق من صحّة ما يروى عن القدماء، يقول: "إنّ الشّيء إذا كان خبرا عن محسوس لم يكن نقضه إلاّ بخبر عن محسوس ولا تصديقه إلاّ بخبر عن محسوس.

❀ الرّوح العلميّة:

❶ الإقرار بنسبيّة المعرفة وقابليّتها للنّمو والتطوّر حسب الزّمان والمكان وتراكم الخبرات، يقول ابن الهيثم بعد أن بسط جانبا من مذهبه العلميّ: " وما نحن من جميع ذلك براء ممّا هو في طبيعة الإنسان من كدر البشريّة، ولكنّا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوّة الإنسانية، ومن اللّه نستمدّ المعونة في جميع الأمور".

ويؤكّد أبو حيّان التّوحيدي أنّ "الحقّ لم يصبه النّاس في كلّ وجوهه، بل أصاب منه كلّ إنسان جهة". ويروي أبو حيّان عن أستاذه أبي سليمان المنطقي نقلا عن أرسطو مثالا يجسّد نسبيّة المعرفة أفضل تجسيد: "ومثال ذلك، عميان انطلقوا إلى فيل، فأخذ كلّ واحد منهم جارحة منه، فجسّها بيده، ومثّلها في نفسه، ثمّ انكفؤوا.

فأخبر الذّي مسّ الرِّجلَ أنّ خلقة الفيل طويلة، مدوّرة، شبيهة بأصل الشّجرة والنّخلة.

وأخبر الذّي مسّ الظّهر أنّ خلقته شبيهة بالهضبة والرّابية المرتفعة.

Tunisie DEVOIR.TN

وأخبر الذّي مسّ مشفره أنّه شيء ليّن لا عظمَ فيه. وأخبر الذّي مسّ أذنيه أنّه منبسط رقيق، يطويه وينشُره. فكلّ واحد منهم قد أدّى بعض ما أدرك، وكلّ يُكذّبُ صاحبه، ويدّعي عليه الخطأ والغلط والجحدَ في ما يصفه من خلق الفيل".

ويعلّق على الحدث بقوله: "فانظر إلى الصّدق كيف جمعهم، وانظر إلى الخطإ كيف دخل عليهم حتّى فرّقهم".

❷ التّواضع : ويتمثّل في الإقرار بأنّ المرء لم يُؤت من العلم إلاّ قليلا، لذا لا نستغرب إذا وجدنا بعض العلماء يصدّر قوله بلفظة: "لعلّ" تواضعا، واعترافا بنسبيّة المعرفة، وعدولا عن الغرور، يقول ابن الهيثم بعد عرض منهجه في البحث: "فلعلّنا ننتهي بهذا الطّريق إلى الحقّ...". مقرّا بإمكانيّة التّقصير والخطإ "ومَا عصمَ اللّه العلماءَ من الزّللِ ولاَ حمَى علمَهم من التّقصير والخَللِ".

✓كما نبّه العلماء المسلمون إلى الخطر من زيغ العلم وانحرافه مؤكّدين أنّه لا يجب أن ينمو ويتطوّر إلاّ في إطار الإيمان باعتباره حارسه وحاميه من كلّ زيغ وانحراف، فالإدريسيّ بعد تعريف علم الجغرافيا أضاف " ومنَ اللّهِ نستمدّ المعُونة والتّوفيقَ في كلّ منهجٍ وطريقٍ". وابن الهيثم قد اتّخذ العلم سبيلا إلى الإقرار بأنّ هذا الكون البديع في نظامه وتركيبه لا يمكن أن يكون كذلك صدفة واتّفاقا بل هو من "آيات الخالق المتعالي، ربّ السّماوات والأرض، الصانع الأوّل الذي لا يشكّ في قدرته وحكمته في خلقه إلاّ كلّ أفّاك لئيم".

❸ النزاهة والموضوعية: ما انفكّ العلماء المسلمون يؤكّدون أنّ دافعهم إلى البحث هو طلب الحقيقة، ولو استوجب ذلك تعديل آراء مشاهير العلماء أو إصلاحها، لا فرق بين متقدّم ومتأخر لأنّه بالحقّ تعرف الرّجال لا بالرّجال يعرف الحقّ.

✓فالجاحظ شكّك في الكثير من أقوال أرسطو، رغم مكانته العلميّة من ذلك خبر الدّارصيني الذي زعم أرسطو أنّه طائر في بلاد اليونان، إذا حلّ موسم تكاثره طار إلى الصّين ليجمع قشر شجر هناك ويعود فيبني به عشّه، وهو ما لم يقبله عقل الجاحظ فاعتبره من الأخطاء التي وقع فيها المعلّم الأوّل ، ولم تمنعه هذه الصّفة من التّدقيق في آرائه والتّحقّق من صحّتها.

✓وابن البيطار في كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية أكّد أنّه لم يحاب في (مؤلّفه) قديما لسبقه ولا محدثا اعتمد غيره عل صدقه، أمّا ابن الهيثم فقد أكّد أنّه جاعل غرضه في جميع ما يستقريه ويتصفّحه "استعمال العدل لا اتّباع الهوى" وأنّه سيتحرّى في سائر ما يميّزه وينتقده " طلب الحقّ لا الميل مع الهوى".

الإضافة

من الطبيعيّ أن يتوصّل المسلمون نتيجة مناهجهم في البحث وروحهم العلميّة إلى تحقيق نتائج باهرة وإضافات ساهمت بجانب كبير في النّهضة العلميّة الغربيّة، يقول المستشرق (ي.هل) في كتابه الحضارة العربيّة: "وعندما نفكّر في الحضارة العربيّة يتبادر إلى الذّهن مباشرة نشاط العرب وإنتاجهم في تلك الميادين من

Tunisie DEVOIR.TN

العلوم، إذ لعب العرب - ونستعمل اللّفظ بأوسع معناه - دورا عالميّا، فقد تناولوا ما وجدوه بالدّرس ووضعوا ثمرة جهودهم بين أيدي الأجيال كأساس يبنون عليه".

وقد نبغ العرب في علوم عديدة منها:

✓علم العدد الجبر: كان العرب منذ الجاهليّة إلى صدر العصر العبّاسي يستخدمون العدّ والحساب في أمورهم العمليّة بيعا وشراء وتقسيما للغنائم والإرث.. فالأعداد والكميّات كانت تدور بالكلمات لا بالرّموز، وقد استعاض العرب عن هذه الطّريقة بنظام التّرقيم الهنديّ بعد توحيد الأرقام وتهذيبها، واستخدموها في المسائل الحسابيّة جاعلين الصّفر دالاّ على الجزء الخالي في العدد، وابتكروا المراتب (أي الخانات)، وهكذا باستخدام الأرقام والصّفر هان عليهم حلّ المسائل الحسابيّة وتدوين الكسور العاديّة والعشريّة، وأمكن بناء المعادلات، وقد أخذ الغرب الأرقام والصّفر عن العرب.

ومن أشهر علماء العرب في الحساب والجبر:

❀الخوارزمي: وكتابه في الحساب، الأوّل من نوعه من حيث التّرتيب والتّبويب والمادّة، وقد نقل إلى اللاّتينيّة، وظلّ مرجعا لعلماء الحساب والعدد، كما بقي علم الحساب نفسه قرونا معروفا باسم (الغورثمي) عند الأوربيين نسبة إلى الخوارزمي. وإليه يرجع الفضل في وضع قواعد الجبر، فقد وضع كتابه "الجبر والمقابلة" في زمن المأمون ثمّ انتقل هذا العلم إلى الغرب بلفظه العربيّ فصار يُعرف بـ (Algèbre)

❀ومن العلماء الذين اشتغلوا بعلم الجبر أبو الفاء البوزجاني و عمر الخيّام الذي قام بتصنيف المعادلات من الدّرجة الثّالثة والرّابعة بواسطة قطع المخروط، وهذا أرقي ما وصل إليه العرب في الجبر، بل أرقى ما وصل إليه علماء الرّياضيّات في حلّ المعادلات في الوقت الحاضر.

✓علم الهندسة: وقد وضع ابن الهيثم كتابا في الهندسة قال فيه " جمعت فيه الأصول الهندسيّة والعدديّة من كتاب إقليدس وأبولونيس، ونوّعت فيها الأصول وقسّمتها، وبرهنت عليها ببراهين نظّمتها من الأمور التّعليميّة والمنطقيّة، وقد رتّبت في هذا الكتاب النّظريّات، وبرهنت عليها ببراهين متتابعة".

وقد أتى ابن الهيثم على مسائل أفضت إلى استعمال الهندسة في مسائل البصريّات التي يحتاج حلّها إلى إلمام بالهندسة والجبر، وبراعة في استعمال نظريّاتهما وقوانينهما، واستعمل ابن الهيثم الهندسة بنوعيها المستوية والمجسّمة في بحوث الضّوء، وتعيين نقطة انعكاس في المرايا الكرويّة والاسطوانيّة والمخروطيّة.

✓علم الفيزياء: من العلماء الذين برزوا في هذا العلم العالم الكبير أبو الرّيحان البيروني وقد ورد في بعض مؤلّفاته شروح تطبيقيّة لضغط السّوائل وتوازنها، ورفع مياه الفوّارات والعيون إلى أعلى.

أمّا مؤلّفات الحسن بن الهيثم في هذا الموضوع فجليلة، إذ ساهم بصورة فعّالة في تطوّر علم المناظر. وقد اشتغل ابن الهيثم بهذا العلم وبحث في امتداده ونفوذه وانعكاسه وانعطافه، ووصف العين وأصلح أخطاء اليونان في كيفيّة الإبصار، فقد كان القدماء يذهبون مذهب " إقليدس الذي يرى أنّ الإبصار يتمّ بشعاع ينطلق من العين ويصل إلى المُبصَر فيرتكز عليه، وقد نقض ابن الهيثم هذه النّظريّة فقال إنّ الإبصار يتمّ من شعاع يخرج من المُبصَر

Tunisie DEVOIR.TN

حتّى يصل العين.فنقطة الانطلاق هي الشيء المُبصَر والمتأثّر هو العين. وقد ظلّت كتب ابن الهيثم مرجعا هامّا لدى الغرب ساهمت بفعاليّة في النّهضة العلميّة الحديثة.

✓الطبّ: لم يكن المرض في نظر الشعوب القديمة سوى أرواح شرّيرة حلت في الأبدان أو هي لعنة السّماء صبّت على أهل الأرض جزاء بما كسبوا نكالا من الآلهة ولا أمل في الشّفاء إلاّ بالرقى والتعاويذ وطرد الأرواح الشرّيرة وهذا من أعمال السّحر. والسّاحر هو الجدّ الأعلى للطبيب وهو طبيب يعالج أشياء عديدة منها المرض ثمّ اختصّ الطبيب بشفاء الأمراض بالطرق الطبيعة وبقي للسّاحر مجاله الواسع في التّأثير في الأشياء بطرق غير طبيعية.

اعتمد الطب في الجاهلية على ما يتوارثه الناس عن المشايخ والعجائز من فصد وكيّ وحجامة. وفي المصادر العربية أسماء أطبّاء ومأثورات طبية. ومن أطبّاء الجاهليّة المشهورين الحارث بن كلدة الثقفي وزهير بن جناب الحميري، وزينب طبيبة بني أود.

لم يختلف الطب في صدر الإسلام عمّا كان عليه في الجاهلية ولكن من مطلع العصر الأموي بدأ يتّخذ خطّا جديدا نتيجة الانتقال من البداوة إلى الحضارة في هذا العصر بذرت بذور الحضارة التي أينعت في العصر العباسي وآتت فيه أشهى ثمارها وأطيب أكلها.

1 ـ يتجلّى فضل العرب في حفظ علم الطبّ من البلى والضياع وعوامل الفناء لقد ورثوه مخطوطات وأشلاء مبعثرة تحتاج إلى تحقيق وتصحيح وترميم فأنقذوا نصوصا مهمة من السوس والديدان وجعلوها غذاء للعقول والأذهان وحياة للنفوس والأبدان. لقد كان التراث الطبي قابعا في زوايا النسيان فبعثه العرب من مرقده ونقلوه إلى لسانهم ثم استنسخوه وبثوه في الآفاق. ومن خلال العرب عرفه العالم وبفضلهم انتقل إليه. فالعرب لم يقتصروا على النقل عن اليونان وحدهم بل نقلوا عن الهنود والفرس وغيرهم وحفظوا ذخائرهم ونفائس كتبهم. لذلك يمكن الجزم بما للعرب من أهميّة في تطوّر الفكر الإنساني وفي أيّ مفترق طرق في التاريخ يقفون.

2 ـ لم يقتصر دور العرب على النقل والحفظ بل قد امتدّ إلى الإضافة والتطوير فقد أنشؤوا عددا من المستشفيات وطوّروا وسائل علاج ورغم تأثير الطب اليوناني والشرقي عموما في الطب العربي إلاّ أنه تميّز عنهما خاصّة باعتماد منهج تجريبيّ ولا يمكننا الإتيان على جميع الأطباء العرب لكننا نعمد إلى أهم الأسماء وأشهر المنجزات. وهي منجزات تتراوح بين المادة والتطبيق وبين المنهج:

❀الرازي: (القرن الرابع هجري) نبغ في الطب والكيمياء والموسيقى والفلسفة قال بعضهم "كان الطب معدوما فأحياه جالينوس وكان متفرّقا فجمعه الرّازي". لقّب الرازي بجالينوس العرب من أشهر مؤلّفاته كتاب "الحاوي" وهو موسوعة طبية شاملة بحث فيه أمراض الرأس والفالج وأوجاع العصب والتشنج والكزاز كما عني بأمراض العيون والأنف والأذن والأسنان. وقد اعتمد الرازي في هذا الكتاب الملاحظات السريرية التي لم تعرف قبله وهي متابعة سيرورة المرض وتطوّر حالة المريض من ذلك ملاحظاته لمرض الجدري.

اعتمد الرازي التجربة والمعاينة فكان يعالج مرضاه بتقسيمهم مجموعتين يعطي واحدة دواء ويمنعه عن الأخرى ثم يلاحظ أثر الدواء في الحالة بل جرّب الرازي على نفسه حين مرض كما جرّب على القردة لشدّة شبهها بالإنسان.

Tunisie DEVOIR.TN

يلحّ الرازي على أهمية الاستدلال بالبول والنبض على العلّة. ولمنهج الرازي فضل الابتداء خاصة في اعتماد إفرازات المريض ونبضه بل إن الدراسات تؤكّد أنّه كان يعمل على تعزيز درجة مقاومة المرض عند المريض إذا لاحظ بجسمه وَهَنًا وغياب قدرة على المقاومة ومما يذكر له من فضل أنه كان يصف مزاج المريض ومهنته وعمره وجنسه... ألسنا بإزاء طبيب من القرن العشرين لا طبيب من القرون الوسطى؟ ومما يذكر له أنه حين استشير في بناء مستشفى ببغداد علّق لحما في أمكنة مختلفة فأيّها أسرع إليه الفساد اجتنبه واختار المكان الذي تتأخر فيه عوارض الفساد.

يعدّ الرازي أوّل من استعمل فتيلة الجرح من أمعاء الحيوان. كما له الفضل في اكتشاف التداخل بين الحالة النفسية والحالة العضويّة من ذلك قصته مع أمير بخارى. يقول الرازي "ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبدا بالصحّة ويرجّيه بها وإن كان غير واثق بذلك فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس".

إن الأطباء العرب هم أوّل من استخدم التخدير بالاستنشاق لأنهم أوّل من صنع الكحول **ALCOL** وما بين التسمية الفرنسية والعربية علاقة قربى غير خافية. ولعلّ هذا الإنجاز يعد ثورة وسبقا بعد أن كانت المسيحية ترى أنّ على الإنسان أن يعيش الألم باعتباره ضريبة تكفير عن خطاياه.

ومما يذكر من فضل العرب العلمي استعمالهم الحقنة من خلال شوكة مثقوبة تصب فيها الأدوية وتغرز في الجسد كما كانوا أوّل من غلّف حبوب الأدوية بغلاف من مادّة محلّية لاتّقاء مرارة الأعشاب المستخرجة منها.

✓علم الصيدلة: الصيدلة هي علم الأدوية. في أواخر القرن الثامن الميلادي انفصلت الصيدلة عن الطبّ على يد العرب الذين أسسوا مدارس لتعليم فنونها والحوانيت لبيعها وتصريفها ومن أشهر الصيادلة العرب ابن البيطار صاحب كتاب (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) ويحتوي الكتاب على شتّى الأدوية وما قام به المؤلّف من اختبارات وتجارب في تركيبها فهو معجم طبي علاجي رتّبه على حروف الهجاء واستقصى فيه ذكر الأدوية المفردة وأسمائها وقواها واعتمد فيه على أكثر من مائة وخمسين مؤلّفا من عيون الكتب التي صنّفت قبله وأسند في كلّ ذلك جميع الأقوال إلى قائليها. وصف حوالي**1500** صنف من الأدوية المختلفة بين معدني ونباتي وحيواني منها **300** صنف جديد لم يتناولها كتاب قبله. وميزته العظمى فيه هي المنهج الدقيق (انظر نصّ أغراض كتاب الجامع في القسم التطبيقي).

✓علم الكيمياء: أطلق العرب على هذا العلم أسماء عدّة منها علم الصنعة وعلم التدبير وعلم الحجر وعلم الميزان.. وهو علم كان عند الإغريق من مشتقّات السحر يستخدم لتحويل المعادن الرخيصة إلى معادن ثمينة وقد أنكر هذا العلم ابن سينا وابن خلدون الذي عقد فصلا في المقدمة في هذا الموضوع.. لم تصبح الكيمياء علما حقيقيا إلاّ بفضل جهود العرب ونزعتهم التجريبية وميلهم إلى التجريب والملاحظة والاستنتاج ولعل أكبر دليل على مآثر العرب في علم الكيمياء ما نراه من أسماء عربية على لسان كلّ من يشتغل بهذا العلم كالقلي **Alcali** والبورق **Borax** والنطرون **Natron** والإنبيق **Alambic** والطلق**Talc** ورهج القار **Arsenic** والإكسير **Elixir** والكحول **Alcool** والسكّر **Sucre** والصابون**Savon** ... هذه الكلمات وأمثالها إنما هي بصمات واضحة خلفتها اللغة العربية

Tunisie DEVOiR.TN

في اللغات الأوربية وبالتالي في الفكر الأوروبي والعلم الأوروبي ولا يضير بعض الكلمات أن تكون من أصل يوناني فإن الكلمة اليونانية منها لم تنتقل إلى أوروبا رأسا وإنما انتقلت إليها بعد أن تعرّبت ولذلك فقد انتقلت إلى أوروبا من خلال لغة العرب وعلوم العرب وحضارة العرب. وقد استخدم العرب الكيمياء لصبغ الأقمشة ودبغ الجلود وصناعة المعادن وتركيبها وصقلها وتنقيتها وتركيب العطور. يقول ابن الأثير إن العرب استعملوا في معركة الزّنج سنة **269** هـ أدوية إذا طلي بها الخشب امتنع احتراقه.

ولعل علم العرب بالكيمياء هو ما جعلهم يستغلون القوى الناجمة عن انفجار البارود (نيترات البوتسيوم) وتسخيرها للأغراض الحربية. إن العرب هم الذين استخرجوا قوّة البارود الدافعة والقابلة لإطلاق القذائف المدمّرة وصنعوا منه ذخيرة للمدافع وكان عرب الأندلس أوّل من صنع المدافع وأخذها عنهم الانكليز الذين حاربوا في الجيش الإسباني.

✓علم الهيئة : هو علم هيئة العالم وعلم هيئة الأفلاك وهو في العصر الحديث علم الفلك وهو علم ينظر في حركة الكواكب الثابتة والمتحرّكة ينبني على الرصد والمشاهدة لا على أوهام صناعة التنجيم. يعدّ العباسيون أوّل من عني بالفلك لتحديد أوقات الصلاة ورصد هلال رمضان والعيدين وبتوسّع الفتح الإسلامي صار على العربي أن يعرف سمت القبلة أينما كان ليولّي وجهه شطر المسجد الحرام عند الصلاة.

وصل علم الهيئة للعرب مشوبا بأوهام التنجيم لكنّهم استطاعوا تنقيته من شوائب الوهم وتميّزوا بنزعة علمية انتصرت على الأوهام. من أشهر علماء الفلك البتّاني والبيروني ومن أشهر إنجازات الفلكيين العرب قياس محيط الأرض وتوصّلهم إلى كروية الأرض قبل علماء أوروبّا. كما توصّل البيروني في كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" إلى كرويّة الأرض إذ يقول "إنّ الأرض متحرّكة حركة الرّحى على محورها".

من أشهر الآلات الفلكية : الإسطرلاب والكرات الأرضية والسّماوية.

ولعلم الهيئة العربي الإسلامي آثار في اللغات الأوربية في أسماء النجوم من ذلك altarالنسر الطائر **alnyat**النياط العقرب **akrab** الجبة **jabbah** الشعلة **shaula** الذنب **danab** الكلب **cheleb** .

النتائج

لقد استطاع المسلمون بفضل ما أنجزوه في مجال العلم والمعرفة :

- إثراء الحضارة الإنسانيّة والمساهمة في صرحها وتحقيق إنجازات تُعدّ هامّة في الحضارة الكونية بتصحيح المعارف المنقولة وتقويمها.
- تحقيق الرّفاه للمجتمع المدني خاصّة بما حققوه في ميداني الطّب وعلم الحيل.
- توظيف هذه العلوم وفق ما ينصّ عليه الدين الحنيف (احترام القيم الإنسانية).
- تحقيق الرّفاه للمجتمع المدنيّ خاصّة بما تحقّق في ميداني الطّب وعلم الحيل والفيزياء وغيرها.

Tunisie DEVOIR.TN

الباب الثاني في الفن والأدب

فن الأدب

تمهيد

✓الأدب هو أحد أشكال التعبير الإنساني عن مجمل عواطف الإنسان وأفكاره وخواطره وهواجسه بأرقى الأساليب الكتابية التي تتنوّع من النثر إلى الشّعر لتفتح للإنسان أبواب القدرة على التعبير عما لا يمكن أن يعبر عنه بأسلوب آخر. وفي الأدب أجناس عدة منها :

الشّعر:

تعريفه : عرّفه ابن طباطبا بأنّه :"كلام منظوم بائن عن المنثور الذّي يستعمله النّاس في مخاطبتهم" وهو "ما إن عُرّي عن معنى بديع لم يعرَ من حسن ديباجته... وما خالف هذا فليس بشعر". وهو حسب ابن رشيق مكوّن من أربعة أشياء بعد النيّة : "اللّفظ والوزن والمعنى والقافية، لأنّ من الكلام موزونا مقفّى وليس بشعر لعدم القصد والنيّة".

أنواعه : القصيدة العموديّة - الأرجوزة - الموشّح - القصيدة الحرّة

النّثر:

تعريفه : هو الكلام الذّي يجري على السليقة من غير التزام وزن.

أنواعه أشهرها :

- الخطابة (خطب الرّسول، خطب عليّ بن أبي طالب، خطب زياد بن أبيه...).
- التّرسّل (رسالة الصّحابة لابن المقفّع، رسالة الغفران لأبي العلاء المعريّ).
- الحكاية المثليّة (كليلة ودمنة).
- النادرة (بخلاء الجاحظ).
- المقامة (مقامات بديع الزّمان الهمذاني ومقامات الحريري) إضافة إلى المقالة وغيرها.

الفرق بين الشعر والنثر

أوّلا : من الناحية التاريخية :

✓ سبق الشّعر النثر في الوجود وكان لغة الإنسان الأوّل حين كان يعيش بعاطفته الطبيعية قبل أن ينضج عقله بأسباب الحضارة والثقافة والتجارب، فلمّا تقدّمت به الحياة وتمدّن نضج عقله واضطرّ إلى النثر الذّي يتّسع لحاجته النثرية بجانب حاجته الشّعريّة.

Tunisie DEVOIR.TN

ثانيا : من الناحية الموضوعيّة :

النثر أميل إلى التقرير والتوضيح نظرا لطبيعته الغالبة والشّعر إلى التأثير نظرا إلى طبيعة العاطفة الغالبة.

ثالثا : من الناحية المعنويّة :

✓ العاطفة عنصر الشّعر الأوّل والحقيقة عنصره الثّاني ، أما في النثر فتأتي الحقيقة قبل العاطفة.

رابعا : من الناحية الصورية :

✓ في الشّعر كثير من الخيال وهو في النّثر أقلّ وأضعف ، فأما الأسلوب فمظاهره واضحة في الوزن والقافية ، وفي رشاقة الكلمات وبراءتها من التنافر والابتذال وتحررها من بعض القوانين العلميّة.

فن العمارة والزخرفة

✓ العمارة ، كما قيل منذ القدم ، هي أم الفنون لأنّها تجمع بين فن البناء والنحت والرّسم والخط والزخرفة ، وكما أخذت كلّ الفنون من بعضها بعضا ، فقد أخذ فنّ العمارة الإسلاميّ أوّل الأمر عن الحضارة الهيلنيستية التّي كانت سائدة قبل الإسلام في الأماكن الواقعة تحت نفوذ الإمبراطورية الرّومانية ، ثمّ ما لبثت أن تطوّرت العمارة الإسلاميّة وأخذت طابعها الخاصّ الذّي يعكس جوهر الفكر الإسلاميّ.

- تأثرت العمارة الإسلامية بشكل كبير بالدين الإسلامي والنهضة العلميّة التّي تبعته. واختلفت من منطقة إلى أخرى تبعا للطقس وللإرث المعماريّ والحضاري السّابق في المنطقة ، حيث ينتشر الصحن المفتوح في الشام والعراق والجزيرة العربية بينما اختفى في تركيا نتيجة للجوّ البارد وفي اليمن بسبب الإرث المعماري.

عمارة صدر الإسلام:

✓ عند بداية ظهور الإسلام خصّص النبيّ محمد صلّى اللّه عليه وسلّم مبنى خاصّا للتّعبد هو المسجد ، وانتشرت المساجد في عهد النّبي حتّى شملت كلّ أجزاء الجزيرة العربية ، وازداد انتشارها بفضل الفتوحات الإسلاميّة ، وكانت العمارة مستمدّة من فنون العمارة في العصر الجاهلي.

عمارة العهد الأمويّ:

✓ اتّخذ بنو أمية مدينة دمشق عاصمة للعالم الإسلامي ، ودمجوا ما لديهم من فنون العصر الجاهلي في الجزيرة العربية مع فنون البناء للغساسنة ، وكانت آثار الغساسنة بدورها متأثرة بالعمارة البيزنطية والسّاسانية ، فالطّراز الأمويّ يمثل مرحلة انتقالية من الفنون المسيحية في الشرق الأدنى إلى الطراز العباسي.

✓ وتتميّز القصور الأُمويّة بالنّحت الملوّن أو غير الملوّن ، وبالرّسوم الفسيفسائية والتّلوينية ، التّي مازالت ماثلة آثارها في قصر الحير الغربي في بادية الشّام ، وهو قصر له بوابة وأبراج ذات طراز مميّز وكذلك مدينة الرّصافة التّي تعدّ نموذجا رائعا من فنّ العمارة الأمويّة ، وقصر المشتى بجنوب عمان وهو مستطيل التخطيط محاط بأبراج نصف دائرية ويوجد به من الداخل أفنية للتهوية بدلا من النوافذ على الخارج وذلك لضمان الخصوصية والأمان.

Tunisie DEVOIR.TN

✓ إضافة إلى الجامع الأموي بدمشق درّة الأبنية الإسلاميّة في ذلك العصر، تخطيطه مستطيل وله قبّة مهيبة تسّمى قبة النّسر وثلاثة مآذن، في جانب القبلة توجد عدّة أروقة مسقوفة تتوسطها القبة ويوجد به صحن مستطيل مكشوف يتوسطه بناء سداسي الشّكل مزخرف قائم على أعمدة ويحفل الجامع بفنون العمارة الإسلاميّة.

عمارة العهد العباسي:

✓ بدأ في هذا العصر العمل على تخطيط المدينة بشكل عامّ بدلا من التّخطيط لكلّ مبنى على حده، ومدينة بغداد خير مثال على هذا، إذ خططت تخطيطا دائريا حتّى سميت بالمدينة المدوّرة وتحتوي على أربعة مداخل منها باب خراسان وباب البصرة وباب الكوفة.

✓ بعد ذلك أتيح للحضارة الإسلاميّة، أن تؤدي ما عليها من دين للحضارات التّي سبقتها، فأثرت الأساليب المعماريّة العربية الإسلاميّة في العصور الوسطى، إذ أعجب الحكام والفنانون الغربيون بالعمارة والزخرفة الإسلاميين، فمثلاً أرسل الإمبراطور "تيوفيلوس" سفيرًا في القرن التّاسع إلى بغداد لدراسة فنّ العمارة الإسلامي، وبنى في العام 835 م قصرًا بالقرب من بوابات القسطنطينية على طراز قصور بغداد، وخططت الحدائق على نمط الحدائق الإسلاميّة.

✓ونرى أثر العمارة الإسلاميّة واضحًا في كنيسة مدينة سرقسطة التّي بناها في القرن السّادس ميلادي طائفة من المسلمين عملت تحت حكم المسيحيين بعد سقوط الأندلس وقد بُنيت بالطوب، أمّا برج الكنيسة فيشابه في تخطيطه المآذن في المساجد الأندلسيّة في شمال إفريقيا، وخصوصا مئذنة مسجد القيروان.

✓ كما كان المقياس الإنساني في العمارة الإسلامية منسجمًا مع الثوابت المُناخية والتقاليد وروح الحضارة الإسلاميّة، ويتجلّى المقياس الإنسانيّ الذّي قامت عليه العمارة الإسلاميّة في حماية الإنسان من عوارض الطبيعة والتلوّث والضّجيج والرّوائح، ولقد استطاع المعمار الإسلامي أن يطوّع العمارة لتحقيق هذه الحماية.

✓ إنّ أهمّ عنصر في المبنى الإسلاميّ هو الفِنَاءُ الداخلي، وفي المساجد يسمّى الصحن. وهذا الفِناء يشكّل القسم المنفتح على السّماء مباشرة، وعليه تطلّ الأبواب والنوافذ في طابقين، ولا يدخله تيّار خارجيّ، إذ يصله بالباب الخارجيّ المطلّ على الشّارع دهليز متعرّج، وهكذا فإنّ الهواء لا يتسرّب إلى داخل الفناء، وكذلك الرّياح والدّخان والغبار، ولقد أثبتت التّجارب أنّ حركة الهواء العلويّة تبقى محوّمة فوق الفناء لا تتمكّن من اختراقه إلاّ إذا كان الدِّهليز والباب الخارجيّ مفتوحين، وهذا يعني أنّ الهواء العلويّ سواء كان حارًا أو باردًا، نظيفًا أو ملوّثًا، فإنّه لا يؤثّر على حرارة جوّ الفِناء وعلى نقاوته.

✓ وفي جميع المباني كانت المياه وسيلة نظافة وترطيب ومتعة عندما كانت تتدّفق من الفوّارات والفسقيّات والبرك المختلفة الأشكال. ولقد درس اتجاه المبنى لكي يتفق مع الحاجة إلى دفء الشّمس ونورها، ومع ضرورة الوقاية من دخان المطابخ وروائح المراحيض.

✓ تمتاز العمارة الإسلاميّة بخصيصة تطلق عليها اسم خصيصة (الجَوَّانية)، فأيّ مبنى سواء أكان مسجدًا أم مدرسةً أم مسكنًا، فإنّه يحمل الطّابع الجواني بمعنى أنّ عمارته الخارجيّة أقلّ شأنًا من عمارته الداخليّة،

Tunisie DEVOiR.TN

ونرى ذلك في المساجد الأولى، كالجامع الأمويّ بدمشق وجامع عقبة في القيروان وجامع قرطبة، كما نراه بشكل شامل في المساكن والقصور.

✓ وقد تأثّرت فلسفة العمارة الإسلاميّة بتعاليم الدّين الحنيف التّي تحثّ على التّواضع وتجنّب التّباهي وعدم المساس بشعور النّاس عن طريق الظهور بمظاهر التّفوق فأعرضت عن ظاهر البيت ليكون بسيطا تظهر عليه سمات التّواضع والتّقشّف واتّجهوا بعناية إلى داخل البيت إلى عالم يحقق لهم سكينتهم ومتعتهم، فتفردت العمارة الإسلاميّة بتفضيل العمارة الداخلية على العمارة الخارجية، فوجدنا داخل المبنى زاخرًا بروائع الزخارف المنتشرة على الجدران والأفاريز والأعمدة والنوافذ والأبواب، وفي البرك والفسقيات، وفي الحدائق والأحواض التّي تفوح منها رائحة الزهور والياسمين، وتنغرس فيها أشجار الليمون وعرائش العنب، حتّى أصبح المسكن فردوسَ صاحِبِهِ، وفي الأثر "جنّة الرجل داره".

✓ لا نكاد نجد أثرًا معماريًا إسلاميًا واحدًا لم يزخرفه الفنانون المسلمون بأنواع الزخارف المختلفة. وتعتبر الزخرفة الإسلاميّة المعروفة باسم الأرابيسك من أهمّ هذه العناصر الزخرفيّة الخالدة في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، بل وتعدّت هذا النطاق الجغرافي والحضاري لتغزو الفنون والعمارة الأوروبيّة.

فنّ الخطّ والزّخرفة والرّسم

الخط :

✓ الخط العربي فنّ الكتابة وتصميمها ،وتتميز الكتابة العربية بكونها متصلة مما يجعلها قابلة لاكتساب أشكال هندسية مختلفة من خلال المدّ والرّجع والاستدارة والتّزوية والتّداخل والتّركيب.

✓أخذت الخطوط العربية تسمياتها إمّا نسبة إلى أسماء المدن كالنبطي والكوفي والحجازي والفارسي، أو أسماء مبدعيها، كالياقوتي والمستعصمي ، والريحاني والرياسي، والغزلاني، كما سميت أيضا نسبة لمقادير الخط، كخط الثّلث والنّصف والثلثين، إضافة إلى تسميتها نسبة إلى الأداة التي تسطرها، كخطّ الغبار.

✓ يعتمد الخط العربي جماليا على قواعد خاصة تنطلق من التناسب بين الخط والنقطة والدائرة.

الزّخرفة والنّقش:

✓ لما انتشر نور الإسلام، استمر العرب في النحت، ولكنّ نوع النحت والهدف منه قد تغيَّرا. وارتبط النحت الإسلامي بالعمارة، فنحت الفنانون ما يوافق التوجه الإسلامي. ومن ذلك واجهة قصر المشتى، الذي أنشئ في العصر الأموي بالأردن على طريق الحج القديمة بين دمشق ومكة المكرّمة، وقد أخذت الواجهة إلى ألمانيا وتوجد اليوم في متحف الدولة ببرلين. والأشكال المنحوتة على هذه الواجهة تتكون من زخارف متباينة متداخلة ومترابطة بعضها مع بعض، وتشمل بعض الأشكال المجردة المستوحاة من الحيوان والإنسان.

Tunisie DEVOIR.TN

✓إلى جانب الحجارة والجص، استخدم النحاتون المسلمون الخشب، وحفروا عليه الزخارف والخطوط.

وكذلك العاج والعظم ونحتوا منها الأبواق والصناديق والعلب، وحشوا بها الأبواب وزخرفوا بها الأثاث مستخدمين أساليب التطعيم والتجميع والترصيع.

✓ وقد وُظّفت الزّخرفة لتزيين المساجد والقصور، كما استعملت في تحلية المخطوطات والكتب وخاصّة نسخ القرآن الكريم، وقد شهد هذا المجال إقبالا من الفنانين المسلمين بسبب نهي الشّريعة عن رسم البشر والحيوان خاصّة في ما يتّصل بالأماكن المقدّسة والمصاحف.

✓أما الرسم عند العرب المسلمين فلم يكن محصورًا في مجال تزيين الكتب فقط، بل تعداه إلى تزيين جدران المساكن، بل وجدران المساجد أيضًا؛ فالمسجد الأُموي بدمشق تزخر بواباته برسوم الأشجار الجميلة والمياه، وغير ذلك من المناظر الطبيعية الخلابة التي تدل على مهارة الفنان الذي نفّذها.

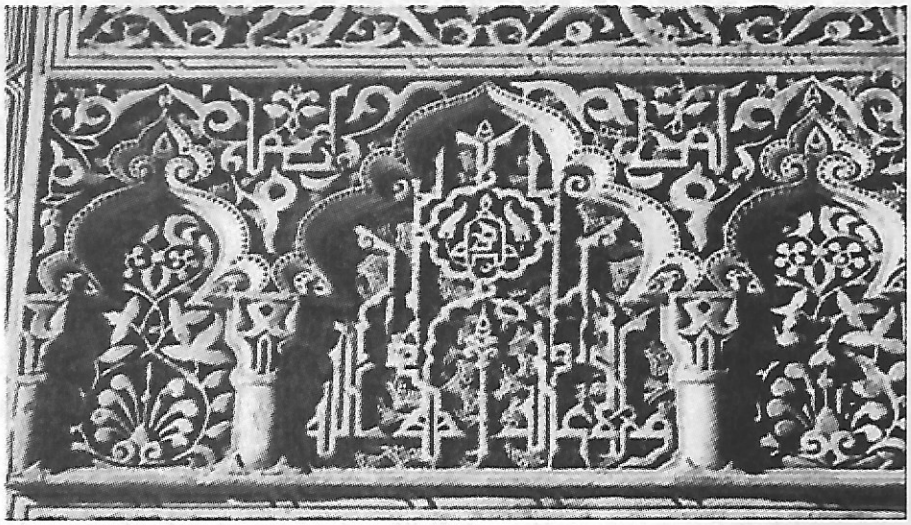

فن الرسم

✓ من أهمّ الرّسوم العربيّة القديمة، ما رسمه الفنّانون لتزيين الكتب، ولتوضيح بعض الأفكار أو الأشكال المذكورة في ثنايا القصص. ولم يقتصر فن الرسم عند العرب على مثل تلك الرسوم التوضيحية، التي صاحبت بعض القصص المشهورة كما في كتاب كليلة ودمنة، على سبيل المثال، بل تعدّتها إلى الرسوم العلمية أيضًا. أما الغرض من اللجوء إلى الرسم في القصص وكتب العِبَر فقد جاء ذكره في مقدمة كتاب كليلة ودمنة، حيث يذكر مترجم الكتاب ـ عبد الله بن المقفع ـ أن من أغراض كتابه إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان ليكون أُنْساً لقلوب الملوك، ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة في تلك الصور، وأن يكون كذلك، محبَّباً لدى العامة والسُّوقة، فيكثر بذلك انتساخه، ويبقى مطلوباً من جميع طبقات المجتمع في سائر العصور، ولينتفع بذلك المصور والناسخ على مرِّ الدهور ..

Tunisie DEVOIR.TN

✓ أما الرسوم التي وُجدت في الكتب العلمية فقد كانت تهتم بالجانب العلمي، وتركّز عليه. وكانت هذه الرسوم العلمية متنوّعة، بتنوُّع الموضوعات فمنها ما وضَّح به الرسامون أنواع النبات المختلفة وفروعها وأوراقها وأزهارها وثمارها، ومنها ما وضَّحوا به بعض الأشكال الهندسية، كما في كتاب ابن الجزري المسمَّى "كتاب الحِيَل الجامع بين العلم والعمل". ويشمل هذا الكتاب مخترعات ابن الجزري من الحِيل الآلية ويصف الآلات الضاغطة والرافعة والناقلة والمتحركة واستخداماتها، وما يتّصل بتركيبها من صور آدمية وحيوانية ورسوم طير.

✓ وهناك أيضًا الكتب الجغرافية والطبّية التي لجأ مؤلّفوها إلى الفنّانين، فأكملوها لهم بالصّور التي تساعد على توضيح الموضوع الذي يتناوله المؤلّف بالبحث والدّرس. ومنها أيضًا الكتب التي تتحدّث عن علم الفلك. وهذه الكتب تحتوي على صور توضِّح البروج والنجوم والكواكب.

فنّ الموسيقى

✓رغم أنّ الموسيقى لغة عالمية، واللغة الوحيدة التّي تفهمها جميع الشّعوب على اختلاف ثقافاتها، فإنّ لكلّ ثقافة تراثها الموسيقي الذّي يمثّل هويتها وقيمها، ويميّزها عن غيرها.

✓والشعوب العربية الإسلاميّة كغيرها من الشّعوب اهتمّت بإرثها الموسيقي لأنّه جزء من ثقافتها وتاريخها الحضاري، وحاولت جاهدة الحفاظ على هذا التراث، وقد مرّت الموسيقى العربية بمراحل متعدّدة، وتركت الدراسات الإسلاميّة المبكرة التّي قام بها كلّ من الكِندي و الفارابي ثروة من الوثائق التّي تحوي نظريات علميّة هامّة أخذتها عن الحضارات القديمة (الإغريقية والفارسية) ثمّ طوّرتها إلى ما يعد الآن أساس الموسيقى العربية.

✓اهتمّ العرب اهتماما بالموسيقى ونظروا إلى هذه الصناعة نظرة إجلال واحترام وحظي المجيدون فيها بكلّ عناية وتقدير، وشغف بها الخلفاء والأمراء والقضاة والفلاسفة والعلماء وأعطوها حقّها من الرعاية والتقدير.

✓الاهتمام بالموسيقى استتبعه ابتكار في صناعة الآلات الموسيقيّة، فقد حقّق العرب منجزات كبيرة في علم الحيل وتقنية الآلات وجعلوا من صناعة الآلات الموسيقيّة فنّا رفيعا ولعلّ من أهمّ الإنجازات في هذا المجال إضافة زرياب إلى أوتار العود الأربعة وترا خامسا، وفي أواخر القرن التّاسع ميلادي وضع أبناء موسى بن شاكر أسس الموسيقى الميكانيكية وقواعدها.

✓تؤكّد بعض الروايات التّي وردت في الأغاني وإحياء علوم الدّين والعقد الفريد أنّ الجمل يغيّر خطواته بحسب تغيير الإيقاع والوزن، والغزال يسهل قيادته بالألحان، والحيات تنسحر، والنمل يرتمي في النار، وبعض الطيور تهوي ميتة على صوت الموسيقى.

Tunisie DEVOIR.TN

✓وظّف الأطباء العرب والمسلمون الموسيقى في الطّب العقلي، والطّب النفسي والجسدي منه استخدامهم السماع (الموسيقى والغناء في تطبيب المصابين بضروب من الخبل أو العته...

الإسلام والموسيقى

✓من المسائل المحيرة في الإسلام موقفه من الموسيقى وقد تجادل الفقهاء والعلماء قرونا حول نظرة الإسلام إلى الموسيقى، فمنهم من دلّل على أن الإسلام حرّمها ومنهم من أثبت بالحجة والقول والبرهان أن الإسلام شرّعها وحلّل ممارستها.

مسوّغات الموسيقى:

✓ من المسلم به عدم وجود أيّة كلمة كراهيّة مباشرة للموسيقى في القرآن الكريم.

أوّلا: التحريم لا يكون إلاّ بنص صحيح ولم يوجد في القرآن الكريم تحريم صريح، فاللّه تعالى حين أراد تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير حرمها بلفظ صريح "حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير اللّه به"... وحين أراد تحريم الزّنى حرّمه بلفظ صريح "ولا تقربوا الزّنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا" فلماذا لم يأت في الغناء نصّ صريح مثل هذه النصوص مع شيوعه وانتشاره وابتلاء النّاس به من قديم؟!!

ثانيا: لا يحرّم اللّه طيبا في الإسلام:

إنّ اللّه تعالى أوجد الطيّبات لمنفعة عباده ولذّتهم وقد ذكرها في كتابه ممتنّا بها عليهم وما كان اللّه ليمتن بها عليهم ثمّ يحول بينهم وبينها بتحريمها عليهم. يقول تعالى: "ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات". فجعل هذه الطيبات من لوازم التكريم لبني آدم.

والطيبات ما تستطيبه الأنفس وتستلذه ويشمل طيبات المأكولات والمشروبات والملبوسات والمشمومات والمرئيات والمسموعات.

✓لو تأملنا لوجدنا حبّ الغناء والطرب للصوت الحسن يكاد يكون غريزة إنسانيّة وفطرة بشريّة، حتّى إنّنا لنشاهد الصبي الرّضيع في مهده يسكته الصوت الطيب عن بكائه، وتنصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه ولذا تعودت الأمهات والمرضعات والمرّبيات الغناء للأطفال منذ زمن قديم، بل إنّ الطيور والبهائم تتأثّر بحسن الصّوت والنغمات الموزونة حتّى قال الغزالي في الإحياء: "من لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال، بعيد عن الروحانية، زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور وجميع البهائم، إذ الجَمَل مع بلادة طبعه يتأثّر بالحداء تأثرًا يستخف معه الأحمال الثقيلة، ويستقصر لقوّة نشاطه في سماعه ـ المسافات الطويلة، وينبعث فيه من النشاط

Tunisie DEVOiR.TN

ما يسكره ويولهه. فترى الإبل إذا سمعت الحادي تمدّ أعناقها، وتصغي إليه ناصبة آذانها، وتسرع في سيرها، حتّى تتزعزع عليها أحمالها ومحاملها".

✓إنّ تجويد القرآن يمثّل قمّة الفنّ الأدبي، وقراءته وسماعه عند من عقل وتأمّل إنّما هما غذاء للوجدان والرّوح لا يعدله ولا يدانيه غذاء، وليس هذا لمضمونه ومحتواه فقط، بل لطريقة أدائه أيضا، وما يصحبها من ترتيل وتجويد تستمتع به الآذان، وتطرب له القلوب، وخصوصًا إذا تلاه قارئ حسن الصّوت، ولهذا قال النّبي صلّى الله عليه وسلّم لأبي موسى: "لقد أوتيتَ مزمارًا من مزامير آل داود".

✓لا مراء في أنّ الفنّ كالعلم، يمكن أن يستخدم في الخير والبناء، أو في الشرّ والهدم، وهنا خطورة تأثيره ولأنّ الفنّ وسيلة إلى مقصد، فحكمه حكم مقصده، فإنْ استخدم في الخير فهو خير، وإن استخدم في الشرّ فهو شرّ.

Tunisie DEVOiR.TN